فيكتور هوكو

(احتفال الفرنساويين لهُ باليوبيل القرني)

احتفل الفرنساويون في اوائل سنة ١٩٠٢ للشاعر فيكتور هوكو في البانتيون كما احتفلوا في اواخر العام السابق بيوبيل الكيماوي برتلو في الصوربون • والبانتيون هيكل فخيم على رابيـة من روابي باريس بالقرب من الصوربون • وهو اليوم مدفن اعاظم الرجال الذين يعترف لهم الوطن الفرنساوي بالفضل والحسنى

ففي السادس والعشرين من شباط الماضي (فبراير) الموافق لختـام القرن الاول من ميلاد فيكتور هوكو ابتدأ موسم الاحتفال بيوبيل هذا الشاعر واجتمع في البانتيون الرؤساء والسفراء والعلماء والشعراء والمشخصون والمشخصات وكل من اشتهر في باريس من الرجال والنساء واكثرهم بالالبسة الرسمية والعسكرية والكساوي العلمية والقضائية موشحون بوسامات الافتخار او متمنطقون بمناطق الحرير المثلثة الالوان اومكتفون بتزيين صدورهم بازرار الوسامات واشارات المداليات على اختلاف درجاتهـا واشكالها • وافتتح هذا الاحتفال الموسيو جورج ليغ ناظر المعارف الفرنساوية بخطبة شائقة

وتلاه في الخطابة السياسي الشهير الموسيو غابريل هانوتو بالنيابة عن الاكاديميـة الفرنساوية فاختلب الاسماع بجواهر لفظه واجتذب القلوب ببلاغة معانيه فانتقل كلامه بالتلغراف والتلفون لجميع المدن الفرنساوية وربما تجاوزها الى كثير من البلاد الاجنبية • لان الموسيو هانوتو بعد ان حاز قصب السبق في ميدان السياسة وحلّ عقدة ماداغشكر وألحقها ببلاده وفك العراقيل السياسية في افريقية الغربية ونهر النيجر تنحى عن كرسي الوزارة وقد شغله مدة تزيد على اربع سنوات وجلس على كرسي الاكاديمية واقبل على نشر الكتب وطبع المقالات التي اشتهرت في العالم كله وكان لها رواج في مصر وغيرها من بلاد الشرق • وهو على رفعة قدره وعلو شأنه لم يزل كما كان في صباه مقيماً في الطابق الخامس من بيت يستطرق بابه على بولفار سن جرمن ويصعد الى مسكنه بدون مصعدة (اسانسور) مائة درجة

ثم أنشد بعض المشخصين والممثلات شيئاً من قصائد فيكتور هوكو وتلا جزءاً من

احاديثه وانفض الجمع ليستأنفوا الاحتفال في مواضع أخرى من باريس لان حفلة البانتيون لم تكن الا افتتاح موسم ادبي في عموم البلاد الفرنساوية ودامت الزينات والافراح فيها سبعة أيام بلياليها وهم في كل يوم وليلة يرفعون الاعلام ويضيئون الانوار ويجمعون الجموع ويلقون الخطب ويأدبون المآدب ويشربون النخب ويمثلون على المراسح الروايات وينشدون الاناشيد ويحررون المقالات المبتكرة ويصورون الرسوم البديعة ويعملون انواعاً كثيرة من المظاهرات والزينات احتفالاً بهذا الموسم وقرّر مجلس نوّاب الامة انفاق ثمانين الف فرنك لهذا الاحتفال عدا ما تنفقه مجالس البلدية والجمعيات الخيرية والعلمية مما يفوق اضعاف هذا المبلغ • فجاء هذا الاحتفال على اتم منوال واحسن نظام لان الفرنساويين اقدر الامم المتمدنة على اتقان الزينات واتمام معدات الاحتفال للطافة اذواقهم وخفة ارواحهم وميلهم الى البهرجة والزينة • وهم يتهافتون على تعظيم رجال العلم والادب ويبالغون في اجلالهم حتى كادوا يعبدونهم من دون الله ويتنسكون في ادخار آثارهم وجمع مناقبهم وحفظ اخبارهم ورفع الهياكل والتماثيل والانصاب لهم • كان الواحد منهم معبود من معبودات قدماء المصريين أو اله من آلهة اليونان أو الفينيقيين • وهم والله اعلم يعتاضون بهذه الاحتفالات عما فاتهم من الاحتفال بتتويج الملوك ويوبيل القياصرة • وقد رفعوا لفيكتور هوكو تمثالاً عظيماً بل تماثيل وسموا باسمه الشوارع والميادين واتخذوا داره متحفاً سموه باسمه وسيجمعون فيه متاع الشاعر واثاث بيته وكل ماله ادنى علاقة به او ذكر في أشعاره ولم يفرطوا بشيء من ذلك ولا اضاعوا له قلماً ولا دواة ولا ورقة من الاوراق التي تعلم بها وهو في المدرسة وقد كتب على واحدة منها « أريد اكون شاتوبريان أو لاشي » ولا الاوراق التي كان يلاعب بها أولاده ورسم لهم فيها الرسوم الهزلية والمضحكة ولا الكيس الذي وضع فيه مبلغ المائة وخمسة وعشرين الف فرنك ثمن المجلدين الاولين من تأليفه المسمى ميزيرابل

ولو أردنا وصف هذه الاحتفالات وايراد الخطب التي تليت فيها والاتيان على ما حررته الجرائد من الفصول الطوال لاستغرق الكلام مجلداً ضخماً لان هذه الاحتفالات كان لها رنة عظيمة في اوروبا كلها • وقد نشرت جريدة التيمس الانكليزية ترجمة هذا الشاعر بالفرنساوية اعظاماً لشأنه لان شهرة فيكتور هوكو ليست في فرنسا وحدها بل هي طائرة في آفاق العالم المتمدن وقد وصلت الى بلادنا الشرقية منذ سنين • اتذكر اني قرأت في « المقتطف » وهو لا يزال في سورية ابياتاً لفاضل من الادباء لخص فيها فكراً من

افكار فيكتور هوكو المذكورة في كتابه المشار اليه وصف بها حالة البائس المسكين الذي اشتدت حاجته واضطره الجوع حتى كسر قفل الخباز وأخذ رغيفاً لسد رمقه فاتته له الخفير وانقض عليه انقضاض البازى على العصفور وقاده الى حبس التوقيف ثم رفعه الى محكمة العدل فلم يشفق عليه حكام العدلية ولا رحمهُ قضاة الحقانية فارتعدت نفس الشاعر من هذا الظلم القاهر حتى صرخ قائلاً « : « اين العدالة في اوهام شرعكم »

ثم لما اتيت الاستانة وجدت أدباء الاتراك وشعراءهم ترجموا كثيراً من نظم فيكتور هوكو ونثره فيما نشر من مؤلفات كمال بك وعبد الحق حامد بك واكرم بك ومدحت افندي صاحب جريدة « ترجمان حقيقت » سابقاً وفي « مجموعة ابو الضيا» و « كتبخانة أبو الضيا » وترجم شمس الدين سامي باشا صاحب قاموس الاعلام جزءًا كبيراً من كتاب (ميزيرابل) وسماه باضافة اداة الجمع التركية على كلة (سفيل) العربية فقال « سفيللر » أي السفلة من الناس . ثم بلغني ان بعض ادباء مصر شرع في ترجمة هذا المؤلف الجليل وسماه «البؤساء » أو نحو ذلك فجمعت شيئاً من أخبار فيكتورهوكو ليحصل لنا علم اجمالي بترجمة حياته وحقيقة فلسفته وسبب شهرته

الدور الاول من حياته ــ من ولادته سنة ١٨٠٢ الى نفيه سنة ١٨٥٢

كانت فرانسا في افتتاح القرن التاسع عشر في هرج ومرج من هول « الانقلاب الكبير » الذي حدث فيها فغير معالمها وثل منهـا عرش الاستبداد وحرر العقول وبدل الظلام بالنور ووضع العدل في موضع الظلم وجرى بسبب ذلك من الفظائع الدموية ما تقشعر من سماع حديثه الجلود . لبث الانقلاب من سنة ١٧٩٠ الى سـنة ١٧٩٥ . ثم نبغ بونابرت واكتسح بالعساكر الفرنساوية ايطاليا ثم مصر وفلسطين وطاف بها اوروبا من مشرقها الى مغربها وقهر الملوك والامبراطور والقيصر واستقدم البابا من رومية الى باريس ليلبسه تاج الامبراطورية ويسميه نابوليون الاول واجلس زوجته جوزيفين على سرير الملكة ماري انتوانيت ثم لم يستحسن التاج على رأسها لانها أرملة الجنرال بوهارنه فابدلها بمـاري لويز بنت أمبراطور المـانيا وجعل أخاه الاكبر يوسف بونابارت ملكاً على نابولي ثم ملكاً على اسبانيا وحشد عساكره في هاتين المملكتين . وكان سيجسبر هوكو والد صاحب الترجمة ضابطاً في عسكر الفرنساويين ومأموراً مع جنودهم بالمحافظة على بيزانسون وهي مدينة على طريق السكة الحديدية بين مرسيليا وباريس

وكان ابوه نجاراً وجده فلاحاً

وفي ٢٦ شباط سنة ١٨٠٢ وضعت امرأته ماري في تلك المدينة غلاماً نحيفاً ضعيفاً فقيده في سجل نفوس البلدة باسم «فيكتور ماري هوكو» وكان له ولدان اكبر من فيكتور أحدهما يسمى أبيل والآخر أوجين • وبعد شهرين من ولادة فيكتور تلقى والده الامر بالمسير الى جزيرة كورسيكا ومنها الى جزيرة ايليا فحمل اليها امرأته واولاده واقام فيها الى سنة ١٨٠٥ • ثم دعي سيجسبر هوكو الى باريس فذهب اليها بعائلته ودخل في خدمة الملك يوسف بونابارت ورافقه الى نابولي ومعه عائلته فشاهد فيكتور بركان فيزوف وهو في السادسة من عمره وانطبعت في ذهنه صورة هذا الجبل وما يتصاعد من فوهته من اللهيب والدخان • وارتسمت في مخيلته مناظر ايطاليا الطبيعية وجوها الصافي • فلما كبر ونظم هذه الرحلة وصف هذه المناظر في أشعاره أحسن وصف

ولما ذهب يوسف بونابارت الى اسبانيا ليلبس فيها تاج الملك اصطحب سيجسبر هوكو وعاد فيكتور مع أمه وأخويه الى باريس وسكنوا في دير فيليانتين بجوار مدرسة الطب العسكرية التي يقال لها « فال دوغراس » وهي قريبة من الباتيون • فكان فيكتور يقرأ مع اخويه اشعار فرجيل على راهب متضلع في الآداب اللاتينية واستمر على ذلك الى سنة ١٨١١ وقد ترقى والده وصار قائداً على الجيش وبلغ راتبه الى ثلاثين الف فرنك اسبانبولي (ريوس) ومنحه الملك يوسف لقب كونت وعينه ناظراً على مطبخه العام • فاحضر حينئذ امرأته وأولاده الى مادريد • فاستفاد فيكتور هوكو من هذه الاسفار فوائد كبيرة وتمكن مع حداثة سنه من مراقبة جمال الطبيعة وحفظ أسماء المدن والبقاع التي مر بها • وشاهد في قصور مادريد آثار العمران الشرقي وصور أعاظم الرجال الذين قامت بهم القرون الماضية فاتسعت مخيلته وانفتق ذهنه ونفح بنفحات شعرائنا الاندلسيين فرقت الفاظه وراقت معانيه وظهر النفس الاندلسي في اشعاره وسمعت النفحة الاندلسية من اكثر قوافيه وذكر في قصيدته التي سماها غرناطة اكثر مدن الاندلس ووصف ما فيها من المباني والقصور وذكر في غير هذه القصيدة جميع المدن التي مر بها في طريقه مثل ايرون وعين العرب التي يقال لها اليوم « فونت أرابي » وقلعة ايرنابي وجعل اسم هذه القلعة عنواناً لرواية من رواياته • ودخل وهو في مادريد مدرسة أولاد الاشراف وخالط فيها أبناء الامراء من الاسبانيوليين وعرف اخلاقهم وعاداتهم فنظمها في رواية (ايرنابي) و (ريوبلاس) وغيرهما من مؤلفاته واستعار اسماء كثير من رفاقه ليشخصهم في قصصه

ورواياته وكان يدقق في احوال الجند ويتأثر باصوات ابواقهم وصدى موسيقاهم فأبدع في وصف حركاتهم العسكرية وقتهم القلاع ونزولهم مساء ورحيلهم صباحاً وسيرهم ليلاً الى غير ذلك من الاوصاف التي تشخص بها حال العساكر تشخيصاً تاماً

ولما انقلبت السياسة في اسبانيا واشتد الخطر على عساكر الاحتلال اعاد الجنرال هوكو عائلته الى باريس ولم يبق عنده الاَّ ابنه الاكبر أبيل فأدخلهُ في خدمة الملك ورجع فيكتور هوكو مع امه واخيه الى الدير الذي كان فيه وعكف على مطالعة ماعند امه من الكتب كمؤلفات فولتير وجان جاك روسو وديدرو احد مؤلفي الانسكلوبيدي ومؤلفات السائح كوك وغيرهم . وكان لامه الفة بعائلة فوشر احد مستخدمي نظارة الحربية فكانت مادام فوشر تكثر التردد عليها ومعها ابنتها الصغيرة عادلة (ادبل) لتلعب مع فيكتور واخيه اوجين وتستنشق الهواء الصافي في بستان الدير . ولما ضبطت الحكومة هذا الدير في جملة ماضبطته من املاك الرهبان سكنت زوجة الجنرال هوكو بالقرب من دار فوشر فكثر اختلاط فيكتور هوكو بعادله والفها حتى صارت فيما بعد زوجته

ولم يمض كثير من الزمان حتى اشتدت الازمات السياسية وتوالت الحوادث المرهبة وعاد نابوليون باخيبة من سفر موسكو وعاد اخوه يوسف بعساكره من اسبانيا ومعه الجنرال سيجسبر هوكو فالتمس الرجوع لمأموريته والدخول في سلك العساكر الفرنساوية فلم يقبلوه الا برتبته السابقة . وبعد ان دارت الدائرة على نابوليون الاول وحبطت اعمال الحكومة الامبراطورية وعاد آل بوربون الى كرسي المملكة الفرنساوية تقرب الجنرال هوكو الى لويس الثامن عشر وتملق اليه حتى صار من المقربين لديه فخلع عليه رتبة الجنرالية وسلمه قيادة العسكر . فاراد ادخال ولديه الاصغرين في هذا السلك كما ادخل اخاهما الاكبر من قبل فوضع فيكتور واخاه اوجين في مدرسة (لوي لوغران) ليدخلهما فيما بعد مدرسة الفنون الحربية وهما من المدارس التي لم يزل يتردد اليها بعض ابناء الشرق في باريس . فاقبل فيكتور هوكو على تحصيل العلوم الرياضية ولم يترك مع ذلك نظم الاشعار فنظم عدة قصائد في الغزل والمدح والهجو والهزل والرثاء وقصيدة في الطوفان ولم يرَ مباينة بين العلوم الرياضية المبنية على حقائق برهانية وبين علوم الشعر التي كان يظنها الناس خيالات باطلة واهاماً كاذبة وان اعذب الشعر اكذبه . بل كان يعتقد بان الشاعر لابد له من تعلم العلوم الرياضية والطبيعية وكان يعتبر تصور حوادث الكون وتخيل مناظر الطبيعة وجمع معاني ذلك في الذهن ثم افراغ المعاني في قوالب الالفاظ ونسجها في ابيات الشعر كل

ذلك اشبه بتصوير المسائل الحسابية والهندسية وحل المعادلات الجبرية . ولذا قال بان صباه لم يكن الا تخيلاً طويلاً ممزوجاً بدرس مدقق وان لا مباينة بين التدقيق والشعر لان القواعد الرياضية تطبق في الشعر كما تطبق في العلم وقال ايضاً « ان الكلمة كائن حيّ فاعلموه »

وكان شاتوبريان من افحل ادباء العصر وله مؤلفات جليلة في النظم والنثر وقد طاف بلاد الشرق وزار مصر وسوريا واليونان والف بعد ذلك كتابه المسمى (روح النصرانية) وبحث عن حكمة الديانة المسيحية فطالعه فيكتور هوكو واعجب به وتشرّب منه آراء المذهب الكاثوليكي وسياسة الحزب الملوكي فكتب على دفتره وهو في المدرسة بتاريخ ١٠ يوليو سنة ١٨١٦ « اريد ان اكون شاتوبريان او لا شيء » . وبعد سنة من هذا التاريخ فتحت الاكاديمية الفرنساوية مسابقة للشعراء وجعلت موضوع السباق « فوائد المطالعة » فنظم فيكتورهوكو في هذا المعنى ٣٢٠ بيتاً عرضها على لجنة التحكيم ولم يكن له من العمر الاّ خمس عشرة سنة فاستحسنوا ابياته واستصغروا سنه وظنوه سارقاً شعره فلم يعطوه الجائزة واكتفوا بقيد اسمه في دفتر الشعراء . وفي السنة التالية بعث الى جمعية « لعب الازهار » — وهي جمعية ادبية تأسست قديماً في طولوز — القصيدة التي سماها « عذارى فيردون » وتشبب فيها ببنات تلك المدينة التي على الحدود الالمانية وبعث ايضاً بقصيدة اخرى في مدح هنري الرابع فنال بها جائزة الجمعية . وفي سنة ١٨١٨ اكمل فيكتور هوكو دروسه في مدرسة « لوي لوغران » واستنكف من الدخول في امتحان المسابقة لاجل قبوله في المكتب الحربي وكتب لابيه بانه عدل عن سلك العسكرية واتخذ الشعر صنعة يتعيش منها وان لا حاجة له بالراتب القليل المعين له واقبل على الجد والاشتغال ومثابرة الاعمال واشترك مع اخيه الكبير ابيل وكان له مشاركة في علوم الادب فأسسا جريدة ادبية عنوانها « المحافظ الادبي » ونشر فيكتورهوكو الاشعار البديعة والمقالات الانتقادية

وكان لويس الثامن عشر الذي جلس على سرير الملك سنة ١٨٢٤ عاقلاً ماهراً لم يصغ لاقوال الذين يريدون اطفاء نور العلم والحرية واعادة المظالم القديمة بل اعطى الشعب حقوقه وسن لبلاده القوانين وكان ولي عهده اخاه شارل العاشر وله ولد اسمه دوك دوبري قتله احد الرعاع وهو خارج من مرسح الاوبرة سنة ١٨٢٠ وخلف دوك دوبري طفلاً صغيراً اسمه دوك دوبوردو فنشر فيكتورهوكو في جريدته قصيدةً هنأ فيها بالمولود واخرى رثى فيها الوالد والقصيدتان موافقتان لسياسة الحزب الملوكي فاستحسنهما لويس الثامن عشر

واجازه عليها بخمسمائة فرنك . وفي تلك السنة بعث فيكتور هوكو الى جمعية لعب الازهار في طولوز بالقصيدة التي عنوانها « موسى على النيل » فكافأته عليها بالمدالية الذهبية وكانت على شكل الزهرة ومنحته لقب الاستاذ في جمعيتها

فاشتهر هوكو وانتشر شعره ولقبه شاتوبريان بالولد النجيب وفتحت الشعراء له ابوابها فتعارف على الفرد دوفينيه ولامارتين مؤلف « الرحلة الشرقية » وسومه واميل دوشان وغيرهم من شعراء العصر وفحول ادبائه وفرح به جميع المنتصرين للحزب الملوكي لانه على مذهبهم السياسي ودينهم الكاثوليكي وترنموا بأبياته في مجامعهم وانشدوا قصائده في نوادي سمرهم وكان ينظم لهم القصائد الهزلية والمدائح الملوكية على ما يوافق مشربهم مثل « التلغراف » و « المقيد السياسي » و « القريحة » وغيرها

فانشرح صدر الشاعر بهذه الشهرة وارتاح باله من جهة تأمين معاشه في المستقبل ولعب الهوى في رأسه فرأى بجانبه صاحبته من الصغر قد انتقلت الى سن الشباب وانتصبت قامتها كالغصن ولبست اثواب الجمال والحسن فهام في حبها واراد الاقتران بها فمنعته امه لفقر البنت وعدم وجود مهر كاف (دوته) معها وقطعت علائقها مع عائلة فوشر فتألم الشاعر بألم الفراق واخذ يراسل حبيبته برسائل الحب والاشتياق ونشرت هذه الرسائل بعد موته تحت عنوان « مراسلات الخطيبة »

وفي سنة ١٨٢١ توفيت والدته فحزن عليها حزناً شديداً لزيادة حنوّها عليه وكثرة احسانها اليه . ولم يمض شهر على وفاتها حتى تزوج والده بواحدة من الغنيات الشريفات لقلة وارده وكثرة نفقاته وبقي فيكتور هوكو وحيداً فريداً وانتقل من الدار التي كان فيها مع امه الى مسكن صغير وتضايق في امر معاشه لقلة ماقي يده ولاحتياجه لمن يدبر له البيت ويهيئ له الطعام . واخذ يفكر في معشوقته وفي الوصول للاقتران بها لان اباهُ افتقر بعد سقوط الحكومة الامبراطورية وابو حبيبته لم يكن من اصحاب الثروة العظيمة فاجتهد فيكتور هوكو في تحصيل المال واقبل على النظم والتأليف ونشر سنة ١٨٢٢ ديوان قصائده فكان له رواج عظيم وقرأه لويس الثامن عشر واعجب به واحسن على الشاعر من خزينته الخاصة براتب سنوي قدره الف فرنك فافترج الشاعر بهذا المعاش وتزوج بعادلة فوشر ولها من العمر ١٩ سنة . وبينما هم في حفلة العرس على مائدة الطعام نهض اخوه اوجين واجرى افعالاً منكرة وفاه بكلام غير معقول فحملوا ذلك اولاً على اكثاره من شرب المدام وذهبوا به الى بيته وفي الصباح وجدوه مختل الشعور وفهموا انه يحب عادلة محبة

شديدة وكان يخفي حبها فلما تزوجت بأخيه هاجت عواطفه وذهب عقله فوضعوه في بيمارستان سارانتون وهو في ارباض باريس واستمر فيه الى ان مات . وكانت عادلة بديعة الحسن رقيقة الحواس غير انها بسيطة الفكر غير مفرطة الذكاء وكان زوجها متيماً في حبها فسكن مدة عند صهره ولما بلغ راتبه من الملك ٢,٠٠٠ فرنك في السنة خرج بها من دار ابيها وسكنا في بيت على حدة فولدت له اولاداً كبروا وماتوا في حياته وهم ليو بولدين ماتت غريقة في نهر السين وشارل مات فجأة عند صاحبة له في بوردوا وفرانسوا مات في باريس وعادلة تزوجت على كره من ابيها واصيبت بداء الجنون مثل عمها وهي لم تزل في قيد الحياة فكانت هذه المصائب باعثة على نظم القصائد التي عنوانها « اولادي » ورثاهم ايضاً في كتاب « التأملات » وغيره بأرق المراثي . وكان موحداً في الاعتقاد ولم يتبع مذهب المسيحيين في البقاء على زوجة واحدة بل شغف بعد ذلك بحب احدى الممثلات واسكنها مع زوجته وعمل عمل القائلين بتعدد الزوجات مع رعايته واحترامه لزوجته الاولى

واخذ فيكتور هوكو يحرر في مجلة « الموز الفرنساوية » التي انشأها الاديبان سومه وديشان ويتردد على بيت شارل نوريه وكان هذا الفاضل مديراً لمكتبة ارسنال وهي احدى المكاتب الاربع الكبيرة في باريس . ونال معاشاً وافراً بسبب هذه الوظيفة وفتح بيته للعلماء والشعراء حتى صار مجمعاً للادباء واسسوا فيه سنة ١٨٢٤ جمعية ادبية على الطرز الجديد . وفي هذه السنة توفي لويس الثامن عشر ولبس اخوه شارل العاشر تاج الملك فمدحه الشاعر بقصيدة عنوانها « التتويج » فحازت القبول وانعم عليه الملك بوسام الافتخار من رتبة شيفاليه كما انعم بذلك على الشاعر الشهير لامارتين . ولما نشر فيكتور هوكو ديوانه في المدح والغزل وحاد فيه عن مسلك الشعر القديم المسمى (كلاسيك) وسلك في النظم مسلكاً جديداً انتقد عليه اصحاب الطريقة القديمة وسلقوه بألسنتهم . ونشر الشاعر « سنت بوف » في جريدة الغلوب بتاريخ ٦ كانون ثاني سنة ١٨٢٧ مقالة انتقادية كانت سبباً لتحويل انظار الناس الى الطريقة الجديدة ولتعارف الشاعرين حتى صارا من اعز الاخوان . وكان شارل العاشر قد حاد عن طريقة اخيه العادلة في سياسة الملك ومال الى الاستبداد فنفر منه الادباء والاحرار واغتنم سفير النمسا في باريس هذه الفرصة وندد في امراء العساكر الذين خدموا مصالح نابوليون الاول واهانهم في الكلام فانتصر لهم فيكتور هوكو لان اباه كان في زمرتهم ونظم قصيدة في مدح « العمود » اي العمود الذي رفع لنابوليون في ميدان فاندوم وطلي بنحاس المدافع التي غنمها في حروبه ونقش عليه اسماء

المواقع الحربية والامراء العسكرية . وكان الشاعر في ذاك التاريخ قد بلغ سن الرجولية وهو السن الذي يتأهل فيه الرجل لحقوق الانتخاب فظن كبقية ادباء العصر المتخوفين من استبداد شارل العاشر ان الحكومة الامبراطورية اكثر عدلاً وحرّية من الحكومة الملوكية ولذا اقبل على اظهار فضل نابوليون واشهار مجده بدون ان يتعرض بالقدح لآل بوربون . ونشر عقب مدحه العمود قصة كرومول . وشرح في مقدمتها طريقته الجديدة في علم الادب وشكل جمعية من انصار هذه الطريقة وفي مقدمتهم الفرد دوفينيه وسنتابوف واميل دوشان والكساندر دوماس و بولانجه وغيرهم مثل لامارتين وسموا طريقتهم « رومانتيك » كما كان المتقدمون يسمون طريقتهم « كلاسيك » وصار فيكتور هوكو امام المدونين في هذه الطريقة الجديدة فانتقد عليه الكثير من ارباب السياسة وحملة الاقلام ولاموه من وجهين احدهما لمدحه نابوليون واشهاره مجد الحكومة الامبراطورية وثانيهما لعدوله عن مذهب الشعر القديم وسلوكه في النظم والنثر مسلكاً جديداً . غير ان الشاعر لم يصغ للوم اللائمين واستمر يتردد على بيت صاحبه شارل نوريه و ينشد قصائده امام الحاضرين . و يستميلهم لطريقته واحداً بعد واحد ولما اتجهت انظار العموم نحو الشرق بسبب ثورة اليونان وذهاب العساكر المصريه لموره وغدر الدول في وقعة نافارين نشر فيكتورهوكو ديوانه المترجم « بالشرقيات» ولم يزر الشرق ولا رأى نساءه مثل شاتوبريان ولامارتين ولكنه درس احواله درساً مدققاً وقرأ ما ترجم من كتب ادبائه مثل كلستان سعدى وديوان حافظ شيرازى وما ترجم من الآيات القرآنية والاحاديث النبوية فراج ديوان الشرقيات لحداثة موضوعه و بحث فيه عن الممالك العثمانية والعوائد الشرقية وعن بلاد اليونان وايتاليا واسبانيا وكانت النفوس متشوقة للاطلاع على مافي زوايا الشرق من الخبايا

ثم نشر قصة عنوانها « آخر ايام المحكوم عليه » وصور فيها الاضطراب الذي يحصل للمقتول قبل قتله . وفي سنة ١٨٣٩ وجه الشاعر التفاته نحو المرسح الفرنساوي (كوميدى فرانسه) وشرع في اكتساب الرزق من تحرير الروايات المحزنة التي يسمونها « درام » وحرر رواية « ماريون دو لورم » وهي غانية من غواني باريس احبها احد الرهبان وكان لها نبأ عجيب على عهد لويس الخامس عشر ولما اراد مدير المرسح تشخيص الرواية منعه المراقب فرفع الشاعر شكواه من ظلم مراقب المطبوعات الى الملك فلم يأذن له بتشخيصها ومع ذلك قرّبه اليه ولاطفه بالكلام وقال « احب قريحتك الشعرية وليس عندي اشعر منك ومن ديزوجيه » وزاد في راتبه حتى ابلغه ٤,٠٠٠ فرنك فرفض فيكتور هذا الراتب مع

شدة احتياجه اليه وشرع في تحرير رواية « ايرناني » فاكملها في بضعة اسابيع وشخصت على المرسح الفرنساوي ليلة ٢٥ شباط سنة ١٨٣٠ واشتد بسببها القيل والقال وعلا في المرسح الصفير والجدال بين اصحاب المذهب القديم والمذهب الحديث في علم الادب وتمّ النصر في تلك الليلة لهوكو وشيعته ولم يبق معه من النقد سوى خمسين فرنكاً فتقدم اليه ملتزم الطبع وبارك له بنجاح الرواية ونقده في مقابلة حق طبعها ستة آلاف فرنك واستلم منه النسخة الخطية وعقد معه مقاولة على تحرير قصة « نوتردام دو باري » وتسليمها في ظرف ستة اشهر فاكبّ الشاعر على المطالعة والتحرير واكمل القصة قبل انتهاء الاجل المحدود فطبعت وكان لها رواج عظيم واسم الرواية مأخوذ من كنيسة باريس الجامعة وهي بناء فخيم بالقرب من دار البلدية ودار الحقانية

ولما اصدر شارل العاشر امره بالغاء الحرية التي منحها سلفه للشعب وبتعطيل احكام القانون الاساسي هاج اهالي باريس وحدث انقلاب تموز سنة ١٨٣٠ وسالت الدماء في العاصمة ثلاثة ايام بلياليها ففرّ شارل العاشر من فرانسا وتنازل عن الملك لابنه وولي عهده دوك انكوليم — وانكوليم بلدة بين بوردو وباريس — غير ان هذا الدوك استعفى ايضاً وانتقل الملك بالارث الشرعي الى دوك بوردو وهو حفيد شارل المشار اليه . فالجمهور من الفرنساويين لم يلتفتوا الى حقوق هذا الصبي وانتخبوا ملكاً عليهم لويس فيليب ابن عم شارل العاشر لقبوله اعطاء الاهالي حقوقهم وتعهده بحماية القوانين . فهوكو — شاعر الملك والمدافع عن حقوق الملكية وناظم القصائد الغراء في ولادة دوك بوردو صاحب الميراث الشرعي وفي رثاء ابيه دوك برّي — لم يهتز لهذه الحوادث بل اظهر استحسانه ما فعله الشعب ولم يعبأ بالمسائل السياسية وظل يشتغل في فنون الادب فنشر ديوانه المسمى « أوراق الخريف » وشخص على المرسح الفرنساوي سنة ١٨٣١ رواية ماريوم دولورم التي منع تشخيصها سابقاً ثم رواية « الملك يتسلى » وهي رواية تاريخية موضوعها فرانسوا الاول الذي التجأ الى ساكن الجنان السلطان سليمان القانوني من شر عدوه شارلكين . فمنع مراقب المطبوعات اعادة تشخيص هذه الرواية للتعريض فيها بالملوك فرفع الشاعر شكواه الى محكمة التجارة ودافع عنها بنفسه امام الحكام فلم يسمحوا له بالتشخيص . ولم يجر تشخيصها مرة أخرى الا سنة ١٨٨٢ وكان الذي ربحه فيكتور هوكو من مؤلفاته كافياً لانقاذه من مخالب الفقر وسعادة حاله ففتح بيته للزائرين حتى صار مجمع الادباء ومركز الشعراء وفي جملتهم الكاتب الشهير تيوفيل غوتيه الاّ ان الشقاق وقع

بينه وبين صاحبه القديم الكساندر دوماس ودام الخصام أعواماً كثيرة لان غيرة الشعراء والعلماء بعضهم من بعض اشد من غيرة الامراء ..

وجفاه أيضاً حبيبه سنت بوف الماهر في فن الانتقاد وقال عن مؤلفاته بانها ممزوجة بآراء السياسة الملكية والديانة الكاثوليكية والفلسفة السيمونية — وهي التي وضعها الكونت سن سيمون في اواخر القرن الثامن عشر وفرض فيها تعلم الصنائع على كل فرد من أفراد الامة فلم يتبعه الا القليل من الناس مثل كارنو والد رئيس الجمهورية الاسبق — فعمل برأيه ومع جلالة قدره جعل احد اولاده نجاراً والآخر مهندساً وكلاهما من اكابر رجال الدولة . ثم الف فيكتور هوكو رواية « لوكريس بورجيا » وهي أُخت قيصر بورجيا الشهير بالاسراف وفساد الاخلاق وكانت بديعة الحسن ولها حديث غريب فشخصت هذه الرواية في ٢ فبراير سنة ١٨٣٣ فاقبل الناس على استماعها ثم شخصت مراراً على المرسح الذي بباب سن مارتن وكانت الممثلة التي شخصت دور الاميرة نيكروني هي ماد موازيل جوليت دروّه التي سبت الشعراء بحسنها وعقلها فشغف فيكتور هوكو بحبها وبعد ان تردد على بيتها كثيراً اسكنها في بيته عند زوجته فلامه أحد أصحابه فحرر اليه يعتذر بان زوجته اذنت له وسامحته على ما فرط به من حب جوليت ولم تزل زوجته تحبه وتعزه . واستمرت في صحبة الشاعر ورافقته في منفاه وكانت تحرر له القصائد وهو يملي عليها ودامت معه الى بعد وفاة زوجته ورافقته أيضاً في سن شيخوخته ونشر فيكتور هوكو أيضاً رواية « ماري تيدور » وهي ملكة الانجليز ورواية « انجلو » وهو أمير ظالم من امراء الطليان ورواية « ربوبلاس » وهو اسم خادم الوزير الذي خدعت به ملكة اسبانيا وكثيراً ما تشخص اليوم على المراسح الفرنساوية هي ورواية (ايرناني) . ورواية « كلودكو » وهي مما ترجم من مؤلفات هوكو الى التركية وفيها دفاع بليغ عن المحكوم عليهم بالاعدام وتشنيع هذا القصاص

ومما نشره في هذا التاريخ من الاشعار الموسيقية غير اوراق الخريف « اغاني الشفق » و « الاصوات الداخلية » و « الاشعة والظلال » وغير ذلك فصار فيكتور هوكو بهذه التآليف يعد من فحول ادباء العصر وانتسب لدوك أورليان وزوجته ووجه عليه لويس فيليب نشان الافتخار من درجة اوفيسيه واهداهُ صورتهُ وانتخبته الاكاديمي الفرنساوية عضواً في جمعيتها باكثرية صوتين فقط بعد ان عارض أعضاؤها زماناً طويلاً في قبوله لشدة تمسكهم بالقواعد واساليب الانشاء القديمة ولم يدخلوه بينهم الاَّ بعد ان اشتهر فضله

كالشمس في رابعة النهار . وسنة ١٨٣٩ ساح فيكتور هوكو في جبال الالب على حدود ايطاليا وسويسرا وشاهد مناظرها البديعة وزار بعد سنتين ضفاف الرين ودرس احوال بلاد الالمان وكتب سياحته في مجلدين نشرا بعد موته واتف أيضاً رواية « بورغراف » التاريخية وبين فيها اخلاق امراء الالمان في القرون الوسطى فشخصت على المرسح الفرنساوي سنة ١٨٤٣ ولم يقبل عليها الجمهور ولا حصل منها ارباح للمشخصين فتكدر الشاعر من سوء طالعه وعدل عن تأليف الروايات وترك راوية « التؤام » التي شرع في تأليفها بدون ان يكملها . وكانت الافكار العمومية تحولت عن طريقة الادب الجديدة (روماتيك) وعادت للاقبال على طريقة (كلاسيك) القديمة لظهور بعض المؤلفات الجديدة فيها . وبمناسبة ذلك هزأت بعض الجرائد الهزلية بفكتور هوكو وصورته برأس كبير وهو واقف امام المرسح بجانب اعلان هذه الرواية ينظر الى السماء وقد طلع ذو ذنب وكانه يناجي ربه وهو يقول « لماذا جعلت للنجوم اذناباً وتركت البورغراف بلا اذناب » وتطلق كلمة بورغراف على ذوي الآراء السخيفة في ضروب السياسة والمقصود تركت الرواية بلا جمهور يزدحم على باب المرسح فيتألف منه ذنب طويل كما هي العادة في اقبال الناس على الروايات المهمة واصطفافهم الواحد وراء الآخر لاشتراء اوراق الدخول . وخرج فيكتور هوكو من باريس الى جبال البيرنة على حدود اسبانيا يروض فيها افكاره ويزيل اكداره ولم يلبث فيها كثيراً حتى فاجأهُ مصابه ببنته وكانت في التاسعة عشرة من عمرها وقد فارقها وهي في اثواب العرس فخرجت بزوجها تتنزه في زورق على نهر السين في مدينة فيلكيه فانقلب بهما الزورق وماتا غريقين قبل ان يمضي على زفافهما اربعة اشهر وزوجها شارل فاكيري هو اخ الاديب المشهور اوغست فاكيري . فزاد كدر فيكتور هوكو واختبر بهذه المصيبة آلام الحياة وهمومها ودخل الحزن قلبه ولعلمه افانين الرثاء فأجاد وابدع في المراثي التي نظمها واكثرها مدرج في كتاب « التأملات » غير انه من هول هاتين المصيبتين وهما موت ابنته وعدم رواج روايته يئس في بادىء الامر من هذا العالم الفاني وانقطع رجاؤه بالله وضعف اعتقاده ورفض الشعر مدةً وأقبل على الاشغال بالعلوم السياسية ودرس المسائل الاجتماعية فنشر كتاباً عنوانه « مكاتيب على الرين » حاول فيه حل مسألة الموازنة الاوروباوية وتوهم تقسيم ممالك اوربا بين فرانسا وبروسيا وأراد تقليد لامارتين في الدخول لميدان السياسة — لان الشاعر لامارتين بعد ان خدم طويلاً في كتابته السفارات الفرنساوية وصار سفيراً في

طوسقانة واتينة ترقى الى مسند الوزارة ولما زار الشرق نال شرف المثول بين يدي السلطان عبد المجيد خان وحاز على الالتفات الشاهاني واحسن اليه بأبعدية (جنتلك) في ولاية ازمير فأقام فيها وحرّر تاريخ الممالك العثمانية في ثمانية مجلدات — ففتح لويس فيليب باب الحكومة لفيكتور هوكو وعينه عضواً لمجلس الاعيان سنة ١٨٤٥ فجلس مع اصحاب اليمين وانضمّ لحزب الاكثرية وهو حزب الوزارة وقال بقولهم وتكلم في بعض المسائل فخطب خطبة في (ماركة الفابريكات) واخرى في « المسألة البولونية » ومدح البابا الحر وطلب ارجاع عائلة بونابرت فلم يكن لكلامه تأثير على اعضاء المجلس كما كان لاشعاره ورواياته تأثير في نفوس الجمهور عند صدورها على المراسح من افواه الممثلين والمشخصات لانه لم ينل من القوة النطقية ماناله من القلمية والفكرية

ولما قوي حزب الجمهورية وحدث انقلاب سنة ١٨٤٨ وانزل لويس فيليب عن عرش الملك واعلنت حكومة الجمهورية الثانية على فرانسا انتخب فيكتور هوكو عضواً في مجلس الامة من ايالة السين واسس في تلك السنة جريدة الوقائع (ايفينمان) وكتب عليها « البغض الشديد للفوضوية والهيام في الشعب والحنو عليه » وكان يعينه في تحرير الجريدة ابناه شارل وفرنسوا واصدقاؤه من أفاضل المحررين مثل بول موريس واوغوست فاكيري وتيوفيل غوتيه والبرلوقروا وغيرهم وكان المترشح لرئاسة الجمهورية اثنين وهما نابليون الثالث والجنرال كافينياك فمالت جريدة الوقائع في خطتها السياسية لنابليون لان فيكتور هوكو كان يترنم في قصائد « المدح في العمود » ويطرب لذكر مجد نابليون الاول ولذا فانه احب في بادىء الامر ابن اخيه نابليون الثالث وظن انه يتقرب اليه ويكون مستشاراً له فرجحه في الانتخاب على الآخر واكتسب نابوليون الثالث اكثرية الاصوات وكانت تزيد على خمسة ملايين ونصف مليون فاعلن رئيساً على الجمهورية واستلم زمام الادارة ولم يلتفت لفيكتور هوكو . فلما خاب ما امله الشاعر انقلب عن اصحاب اليمين الى اصحاب الشمال وصار من اكبر روّساء الحزب المخالف فاتهمه العقلاء بانه مذبذب يتردد بين اليمين والشمال ودافع عنه اصحابه بقولهم ان الشاعر لايهتم بالاحزاب وانما يرى مصلحة الامة فيسير معها . وكان كلما خطب في المجلس خطبة شددوا عليه النكير وذكروه بسوابق اعماله واشعاره . ولما تمت الرئاسة لنابوليون مالت نفسه للبس التاج وشرع في اعداد المعدات وتهيئة الاسباب فتظاهر فيكتور هوكو له بالعداوة ونشر في تقبيح سياسته فصولاً وعرض باسمه في جريدة الوقائع فسماه نابليون الصغير فاتهم مراقب الجرائد ابنيه المحررين لتلك الجريدة وحاكمهما

والقاها في السجن . ثم استبد نابوليون بالامر واجرى حادثة ٢ دسمبر سنة ١٨٥١ والقى القبض على زعماء الحزب الجمهوري وجميع المتهمين بمخالفة السياسة الامبراطورية وكان اسم فيكتورهوكو في رأس قائمة المتهمين فساعدته حبيبته الممثلة جوليت دروه على الاختفاء واستحصلت له على تذكرة مرور فخرج من باريس فارًّا وهنا تم الدور الاول من ادوار حياته

الدور الثاني وهو مدة وجوده منفيًّا من سنة ١٨٥٢ الى رجوعه لباريس سنة ١٨٧٠

بعد ان فرَّ فيكتور هوكو من باريس تجاوز الحدود الفرنساوية واتى بروكسل عاصمة البلجيك وكان في غاية الضيق من قلة النقود فحرر لزوجته يوصيها بالتدبير والتقتير و يعرفها بأن مصروفه في الشهر لا يتجاوز مائة فرنك واقبل على التحرير والتأليف وهو يستشيط غضبًا فنشر كتابه « نابوليون الصغير » وكان اول صاعقة من الصواعق التي رماهُ بها ثم نشر « تاريخ جرم » فتهافت الناس في فرانسا وعموم اوروبا على مطالعة هذين الكتابين فمنع نابوليون دخولها لمالكه وامر سفيره في بروكسل بأن يطلب من حكومة البلجيك ابعاد فيكتور هوكو عنها فلم تجسر الحكومة على ذلك الا بعد اخذها قرار مجلس النواب فدعته للخروج فذهب الى جزيرة جرسي التابعة لانكلترة وهي جزيرة في بحر المانش بين فرانسا وجزائر بريطانيا العظمى وجلب اليها عائلته وكانت حبيبته جوليت سبقتهما واقامت معه في بروكسل وشاركته في السراء والضراء وكان في ضيق من جهة المعاش ولم يكن معه الا سبعه آلاف فرنك فعرَّف الجوع بقوله « ان المخمصة تثقب في قلب الانسان ثقبًا وتملأهُ بالحقد » ونشر كتاب « القصاص » سنة ١٨٥٣ وكان صاعقة على نابوليون اشد من الاولى وراج رواجًا عظيماً في فرانسا واوروبا وربح ملتزم طبعه في بروكسل ربحًا وافرًا لم يعد منه على المؤلف الاَّ اليسير

ولم يزل نابوليون الثالث يضطهد رجال الحزب الجمهوري و ينفيهم من الارض فعارضه فيكتور هوكو ونظم عدة قصائد في وصف حالة اولئك المضطهدين الذين اخرجوا من ديارهم ظلماً وعدوانًا فطلب سفير فرانسا في لوندره اخراج هوكو من جزيرة جرسي وابعاده فأخرجته الحكومة الانكليزية ارضاء لنابليون ولكنها لم تضيق عليه فذهب الى جزيرة كيرنيزي وهي بجوار الجزيرة الاولى في بحر المانش وتابعة مثلها للانكليز واشترى فيها دارًا خربةً مهجورةً مبنيةً على صخرة عالية مطلة على الاوقيانوس المحيط وتسمى « هوت فيل هوس » فرممها وسكنها واتخذ الطبقة العليا منها غرفة لاعماله فكان يشتغل فيها بالنظم والتأليف و يفكر في تقلبات الدهر واحوال العالم و بصره شاخص الى لجة البحر المحيط وكان

يعينه في التحرير والمطالعة ابناهُ وزوجتاهُ وصاحبه الشاعر اوغست فاكيري فنشر سنة ١٨٥٦ كتاب التأملات وعرفه بسائحات البال ثم اخذ يسلي همومه بمطالعة اخبار المتقدمين ودرس سير الانسان في مدارج الترقي والعمران فنشر القسم الاول من كتاب « سير الدهور » سنة ١٨٥٩ ثم الف قصته الشهيرة المترجمة « بالبؤساء » وكان له صديق حميم وهو موسيو لوقروا ناظر البحرية في الوزارة الفرنساوية السابقة اي وزارة الموسيو ميلين فكان هذا الاديب يعين الشاعر على طبع مؤلفاته في البلاد الاجنبية فلما بعث اليه بالمجلدين الاولين من كتاب البؤساء باعهما لملتزم الطبع في انكلتره بمبلغ قدره ١٢٥ الف فرنك ذهب انكليزي

ولما نشر هذا الكتاب سنة ١٨٦٢ اقبل المترجمون على ترجمته ونشروه في تسع لغات من لغات اوروبا في آن واحد وكان اصحاب المطابع تستدعي الموسيو لوقروا من جميع الجهات في انكلتره والمانيا والنمسا ليشتروا منه حق الترجمة والطبع ولما ذهب الى لوندره عند الكتبي الشهير في بترنوستر رود سأله بعنف : —

— كم تطلب بحق نشر كتاب البؤساء في اللغة الانكليزية ؟ : — فأجابه

— ثلاثة آلاف ليرة انكليزية . فتناول دفتر الشك وحرر المبلغ والاسم وقال له

— خذ نحن على وفاق

فسعد حال فيكتور هوكو من جهة المعاش وذهب عنه الضيق فنظم داره وغرس ارضها بالاشجار والرياحين وطار ذكره في العالم المتمدن وقصده الزوار وكاتبه الرجال وكان البعض يحرر عنوانه « فيكتور هوكو في الاوقيانوس » فكانت المكاتيب تصله بهذا العنوان المبهم لسعة شهرته . واشتهر اسمه لاقترانه باسم نابليون وكبَّره البعد والاعتزال في تخيلات الناس حتى اعتقدوه من اكبر العقول البشرية وكانت العيون ترقب طلوع مؤلفاته كما ترقب شمس الشتاء . وفي سنة ١٨٦٤ نشر كتاب « وليم شكسبير » في الفلسفة وبعدها بسنة نشر ديوان « اغاني الشوارع والاحراج » وفي سنة ١٨٦٦ نشر قصة « المشتغلين في البحر » ووصف فيها ما يكابده الفلاحون من المشاق وما يتورطون فيه من الاخطار . وفي سنة ١٨٦٩ نشر قصة « الانسان الضاحك » . ولم يأل جهداً وهو في تلك الجزيرة عن الانتصار للاقوام الذين غدر بهم الزمان ورماهم سوء الطالع بالخسران وفعل مافعله فولتير وهو في فيرين فدافع عن عصاة ايرلانده وعن مكسميليان امبراطور المكسيك وهو أخ امبراطور النمسا اغراه نابليون الثالث على لبس التاج وامده بالعساكر الفرنساوية ثم تخلى عنه فحاكه المكسيكيون وقتلوه

فيكتور هوكو وحفيداه

ثم ان المسائل العائلية اخلّت براحة الشاعر واقلقت افكاره وذلك ان ابنته عادلة احبت فومندان المركب المحافظ على الجزيرة وتزوجت به رغماً عن والدها وذهبت معه الى الهند منشأ الطاعون ومهب الريح الاصفر فمات فيها وعادت افرانسا تختلة الشعور سنة ١٨٧٣ فادخلوها البيمارستان مثل عمها وهي التي ورثت اباها . وفي سنة ١٨٦٨ توفيت زوجة فيكتور هوكو في بروكسل بعد ان كفّ بصرها وذهب ابناه في السنة التالية الى باريس مع صاحبها اوغت فاكيري لينشئوا فيها جريدة « رابل » و يندّدوا بالحكومة الامبراطورية وذهب فيكتور هوكو الى بلاد سويسرا ليحضر مؤتمر لوزان و يخطب فيه خطبته المشهورة . ولما جرت الانتخابات في اوائل سنة ١٨٧٠ نشر فيكتور هوكو رسالة اعتراضية عنوانها « لا » ثم انتشبت الحرب بين فرانسا وبروسيا ودارت الدائرة على نابليون الثالث فسلم سيفه في ميدان القتال الى ملك بروسيا وطار الخبر الى باريس فاجتمع رؤساء الحزب الجمهوري في دار البلدية واعلنوا الحكومة الجمهورية مكان الامبراطورية في ٤ سبتمبر سنة ١٨٧٠ وهي حكومة الجمهورية الثالثة الحالية ولم يعد مانع لفيكتور هوكو من الرجوع الى فرانسا . و بذلك انتهت أيام نفيه

الدور الثالث من حياة فيكتور هوكو وهو دور شيخوخته أي من رجوعه
الى فرانسا سنة ١٨٧٠ الى وفاته سنة ١٨٨٥

بعد ان أقام فيكتور هوكو في منفاه ثماني عشرة سنة عاد الى باريس مع من عاد من اركان الحزب الجمهوري واستقبله احباؤه واشياعه وانزلوه على الرحب والسعة فحرر خطاباً بليغاً الالمانيين يحضهم فيه على الصلح وترك الحرب وكان من رأيه السياسي وضع اتفاق بين الامة الفرنساوية والبروسيانية وتقسيم البلاد بينهما فلم يصغ الالمانيون لخطابه وظلوا هاجمين حتى بلغوا خنادق باريس والقوا الحصار عليها فترك فيكتور هوكو القلم من يده وامسك السيف وانتظم في سلك الجنود المحافظين من الاهالي ودافع عن اوطانه وتألم بآلام اخوانه . ولما احتلت العساكر البروسانية باريس هاجر منها اهلها واتخذت الحكومة الجمهورية مدينة بوردو مركزاً لها عوضاً عن باريس . وانتخبت ايالة السين فيكتور هوكو مبعوثاً لها في مجلس النواب فلما قام يخطب عارضه اصحاب اليمين واكثروا اللغط وابوا الانصات له فقال لهم « منذ ثلاثة اسابيع رفض المجلس الاصغاء لغاريبالدي واليوم يرفض الاصغاء لي فاقدم استعفائي » وغاريبالدي هو من القواد الذين حاربوا لاجل استقلال ايطاليا وهاجم رومة العظمى وانتزعها من يد البابا وسلمها الى ملك ايطاليا ليتخذها عاصمة لملك فلما انتشبت الحرب بين فرانسا وبروسيا دخل متطوعاً في العسكر الفرنساوي ودافع عن فرانسا اشد المدافعة فانتخب مبعوثاً في مجلس النواب مع كونه طلياني الاصل وكانت الاكثرية في المجلس من حزب الملوكيين والرهبانيين فاتهموه بالكفر والالحاد لتجاوزه على رومة ونزعه سلطة البابا منها ولذا لم يصغوا لكلامه . وفي ذاك التاريخ اعيد طبع كتاب « القصاص » نكالاً من حزب الامبراطورية وكان يباع بالمائة الف نسخة معاً . ولما كان ابن فيكتور هوكو المسمى شارل في بوردو دخل عند صاحبة له يقضي ليلته فتوفي فجأة في فراشها وحزن ابوه حزناً شديداً فجاء بجثته الى باريس ودفنها يوم حدوث ثورة الكومين والعطف بالحنو والرأفة على ولديه الاصغرين وهما جورج وجان وبالغ في دلالهما حتى اثر هذا الدلال في اخلاقهما واصبحت جان لا تستطيع معاشرة زوجها حتى طلقها لشدة ميلها الى اللهو والخلاعة وبعد وفاة شارل تزوج الموسيو لوقروا بزوجته لتربية الولدين لاحياء بيت فيكتور هوكو فتبناه الشاعر وأحبه حباً شديداً

ولزم فيكتور هوكو الحيادة في المسائل السياسية لحزنه على ولده ولفلذة كبده غير انه لم يطق الصبر على ماشاهده من فظائع الرعاع فلامهم على قلبهم العمود المنصوب لنابليون الاول

كما لام حكومة فرسايل على اطلاقها القنابل على قنطرة النصر المنصوبة له وبرأ نابوليون الاول مما جناه ابن اخيه على البلاد من الحرب التي جلبت عليهم الويل والدمار وذهب هوكو في اثناء تلك المعامع الى بروكسل والى لوندرة ونشر كتابه المعنون بالسنة المهولة وشدد فيه النكير على دخول الاجانب لفرانسا وعلى الفظائع التي اجراها الرعاع والسفلة وهم الكومين . ثم عاد فيكتو هوكو لباريس وانشأ فيها جريدة سماها « الشعب الحاكم » وجعل ثمنها خمسة سنتيمات لكل نسخة ليتمكن الفقراء من مطالعتها . ولم يهدأ بال الشاعر برجوعه لاوطانه واجتماعه على احبائه وخلانه الاَّ واصيب بموت ابنه الثاني فرانسوا فصبر على مصائب العمر ونكبات الزمان وسلم الامر لله لانه كان من الموحدين وعكف على النظم والنثر فنشر سنة ١٨٧٤ قصة عنوانها « ثلاث وتسعون » وتكلم فيها عن الانقلاب الفرنساوي الكبير . وفي سنة ١٨٧٥ انتخب فيكتور هوكو عضواً لمجلس الاعيان (سينا) فجلس في نهاية اصحاب الشمال ولم يتكلم في المجلس الاَّ قليلاً مثل طلبه العفو عن مجرمي الكومين — والكومين هم القوة المحزبة او الادارة العرفية التي تتشكل في العاصمة وتحدث انقلاب الدولة ويحصل بسبب ذلك من تعدي الرعاع وتسلط السفلة ما تقشعر من سماعه الجلود . وقد تأسست هذه الادارة المرهبة في باريس مرتين احداهما سنة ١٧٩٢ والاخرى سنة ١٨٧١ واستمرت هذه السنة من ١٨ مارس الى غاية مايو وجرى في اثناء ذلك كثير من التعديات والمظالم فكان فيكتور هوكو يشير في المجلس بالعفو عما مضى ولم يظهر له اقتدار كبير في السياسة ولا في فن الخطابة مثل غامبتا وامثاله من فحول السياسيين . وانما صرف كل قواه في الاشتغال بعلوم الادب والتاريخ ونشر « الاقوال والاعمال » و « اولادي » و « معرفة ما يكون به الانسان جدًّا » وفي سنة ١٨٧٧ نشر القسم الثاني من « سير الدهور » و « الاملاك العمومية التي تدفع الرسوم » ونشر من سنة ٧٨ الى سنة ١٨٨١ اربع منظومات فلسفية وهي « البابا » و « الرحمة العالية » و « الاديان والدين » و « الحمار »

وحاز في شيخوخته احتراماً كبيراً وثروة عظيمة زادت على ثلاثة ملايين فرنك ولما بلغ الثمانين من عمره احتفل به اهالي باريس احتفالاً عظيماً وزينت له المدينة في ٢٦ شباط سنة ١٨٨١ ووفد عليه المهنئون من جميع الولايات والنواحي واكثر الممالك الاجنبية فاستقبلهم وهو واقف بين حفيده جورج وحفيدته جان وكان مغرماً في حبها وفي حب جميع الاطفال وقد خصهم بالذكر في اشعاره وتغزل بهم ولذا كان في جملة الوفود المهنئين وفد من اجمل الاطفال الصغار يحملون له باقات الازهار . ولم يبق احد في باريس الاَّ ومرَّ ببابه

وصاح جمهورهم بالدعاء له فوقف في نافذته وحياهم كما يحيي الملك شعبه ودموعهُ تذرف من شدة التأثر والاشفاق . وكان مشاهير الرجال وامراء الناس واعيانهم كلما جاؤُا باريس زاروه في داره وحضروا مجلسهُ . وكان في جملة من زاره امبراطور البرازيل فكان الاحتفال ببلوغه الثمانين من اجمل الاحتفالات التي لم يسبق مثلها الاَّ للشاعر الفيلسوف فولتير قبل موته بقليل . ونشر فيكتور هوكو في آخر ايامه منظومة طويلة سماها « رياح العقل الاربع » ورواية « توركاده » والقسم الثالث من « سير الدهور » و « ارخبيل بحر المانش » وغير ذلك من الآثار التي نشرت بعد وفاته وسيأتي وصفها في اواخر هذا الكتاب

ولما توفي فيكتور هوكو سنة ١٨٨٥ لبست باريس عليه اثواب الحداد والتبس فيها الامر على الغرباء حتى لم يعلموا هل القوم في مأتم عظيم ام في عيد كبير وجيء بجثته فوضعت في تابوت عال تحت قنطرة النصر بعد ان كسيت بالسواد وزينت بالازهار والرياحين واصطف الشعراء حولها صفوفًا واحتاط بهم الفرسان يحملون بأَيديهم المشاعل وسهروا عليه طول ليلتهم والناس يمرون امام تابوته افواجًا افواجًا ولما اصبح الصباح اجتمعت الجموع وزينت الصفوف وكانت اكثر المدن الفرنساوية والممالك الاجنبية قد بعثت بالوفود والاكاليل فحملوا الجنازة من تحت قنطرة النصر الى البانتيون وصار له مشهد لم يسبق لشاعر قبله ولا لفولتير . وكانت وصية هوكو أَن لا يحضر جنازته راهب ولا احد من الاكليروس وان يدفن كالفقراء . ولذا كانت العربة التي حملوه عليها من عربات الفقراء لا تناسب دبدبة هذا الاحتفال ولم يجر له احتفال ديني بل كان الاحتفال بجنازته اهليًّا . اه